الصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي

م.م. عباس كريم عبد
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية/قسم التاريخ

المقدمة

يتناول البحث التالي موضوع ((الصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي)) وكانت الأسس المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل السلع وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع، ولم تكن الصحراء تشكل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بين الإقليمين فقد كانت طرق القوافل الصحراوية إلى السودان الغربي بمثابة معابر انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية من المغرب إلى السودان الغربي.

لقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى أربعة مباحث، فقد تناول المبحث الأول مبررات ودواعي العلاقات التجارية، فيما يتناول المبحث الثاني الطرق التجارية وأهميتها، أما المبحث الثالث فقد خصص لأهم المراكز التجارية المغربية والسودانية، فضلاً عن المبحث الرابع الذي استعرض أهم السلع الجارية المتبادلة بين الإقليمين.

كان عماد البحث مجموعة من المصادر تنوعت بين الأصيلة منها والحديثة. ومن بين هذه المصادر كتاب ((المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب)) لمؤلفه أبو عبيد البكري، وكتاب ((المعجب في تلخيص أخبار المغرب)) لمؤلفه عبد الواحد المراكشي، وكتاب ((العبر وديوان المبتدأ والخبر)) لمؤلفه عبد الرحمن ابن خلدون، فضلاً عن مجموعة مهمة من المراجع الحديثة والتي كانت مكملة لما تتطلبه مقتضيات البحث.

تمهيد

لقد بدأت صلات العرب المسلمين الأولى بالسودان الغربي عن طريق الحملات العسكرية، فقد استطاع القائد عقبة بن نافع الفهري في عام ٦٢هج/ ٦٨٢م من توجيه حملة عسكرية إلى الحافات الشمالية للصحراء الغربية والتي تعد المعبر الذي يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي[١] كما تبعتها حملات أخرى ومنها حملة القائد موسى بن نُصير إلى وادي درعة في السودان الغربي، حيث مكّنت هاتان الحملتان من التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها من قبائل صنهاجة[٢] وفي القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد قاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع حملة عسكرية في أيام ولاية عبيد الله بن الحجاب على المغرب (١١٦-١٢٣هج) وصلت إلى مناطق السوس الأقصى وأرض السودان[٣].

إن هذه الحملات العسكرية قد فتحت الطريق أمام العرب للوصول إلى بلاد السودان الغربي بصورة واسعة، وفي خلال القرون التالية من القرن الثاني إلى الخامس للهجرة/ الثامن إلى الحادي عشر للميلاد لعبت القوى السياسية في بلاد المغرب دوراً كبيراً في توثيق صلة العرب ببلاد السودان الغربي وذلك بإقامة علاقات سياسية وتجارية مع تلك المناطق حيث كان للأدارسة في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد سلطة واسعة في الصحراء الغربية وصلت إلى أعماق السودان الغربي، كما كان للفاطميين الذين حكموا المغرب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي دور في إيصال المؤثرات العربية الإسلامية إلى السودان الغربي[٤].

وبعد وصول العرب المسلمين إلى شمال أفريقية، بدأت العديد من القبائل العربية بالتوغل في مناطق الصحراء وبلاد السودان وقد استمر التدفق العربي حتى دخلت بعض القبائل العربية إلى مناطق السنغال والنيجر في السودان الغربي، وقد رافق توغل العناصر العربية إلى الصحراء وبلاد السودان الغربي نشاط التجار العرب الذين أخذوا ينفذون إلى تلك المناطق بالقوافل التجارية، كما أن المؤثرات العربية الإسلامية قد انتقلت إلى السودان الغربي نتيجة هجرة جماعات كبيرة من أجل

نشر العقيدة العربية الإسلامية وكان من بين هذه الجماعات العديد من العلماء والفقهاء والذين ساهموا بدور كبير في نشر الإسلام في مناطق السودان الغربي[٥]

لقد بدأ اتصال التجار العرب المسلمين مع السودان الغربي منذ وصولهم إلى شمال أفريقية في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ويبدو أن ذهب السودان كان حافزاً مهماً لعبور التجار العرب المسلمين الصحراء وممارسة نشاطاتهم التجارية مع بلاد السودان الغربي، ولأجل ضمان تدفق ذهب السودان فقد قام العرب بتنظيم التجارة عبر الصحراء، ففي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي أمر الوالي عبد الرحمن بن الحجاب بحفر الآبار في الطريق التجاري الذي كان يمر بالسوس إلى أوغست لتسهيل سير القوافل التجارية[٦].

المبحث الأول

مبررات ودواعي العلاقات التجارية

يطلق اسم السودان الغربي على جميع الأقاليم شبه الصحراوية من أفريقيا التي انتشر فيها الإسلام ويمتد جنوبي الصحراء الكبرى ومصر، أي من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق وتساير حدودها الجنوبية بصفة خاصة خط عرض (١٠شمالاً) وتنقسم هذه الأقاليم إلى ثلاث أقسام[٧]:

١- السودان الغربي ويشمل حوض السنغال ونهر جامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر.

٢- السودان الأوسط ويشمل حوض تشاد.

٣- السودان الشرقي ويشمل الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل.

لعبت الصحراء الكبرى دوراً كبيراً في تأريخ السودان الغربي، فقد كانت طرق القوافل الصحراوية إلى السودان الغربي بمثابة معابر انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية من المغرب إلى السودان الغربي، ولم تكن الصحراء في يوم من الأيام تشكل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بين الإقليمين وكانت الأسس المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل السلع وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع.[٨]

تعاقبت على المغرب عدة دول كان لها دوراً بارزاً في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس والسودان الغربي فقد قامت دولة الدارسة (١٧٢-٣٧٥هج) على أكتاف بربر المغرب الأقصى الذين بايعوا إدريس بن عبد الله وقد وحّد الأدارسة البلاد وأقاموا بها حكومة مستقرة وأسسوا مدينة فاس كما قضوا على فتنة الخوارج ونشروا الإسلام وغدت مدينة فاس مركزاً هاماً لنشر الثقافة الإسلامية بين البربر وطبعوا البلاد بطابع حضاري إسلامي مغربي.[٩]

قام الأدارسة بجهود طيبة أدت إلى انتشار الإسلام بين الملثمين[١٠] وقد أدى ذلك إلى قيام حلف قوي يجمع الملثمين جميعهم بزعامة لمتونة وكان هذا التوحيد في ظل الإسلام نذير

موجة من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربي وتأكد إسلام الطوارق في القرن الثلث الهجري وكان دور الطوارق أو الملثمين شبيهاً بدور العرب في النوبة في السودان أو (دور الأعفار والدناقل والجالا) في شرق أفريقيا، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى والسودان الغربي وهم الذين حملوا لواء الإسلام إلى هذه الجهات وكانوا العامل التوجيهي لتاريخه وثقافته[١١].

كانت مملكة غانة[١٢] تهدد تجارة السودان تهديداً خطيراً، هذه التجارة التي كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجية الضاربة في الصحراء وعلى ساحل المحيط، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل (لمتونة، وجدالة ومسوفة) بفضل الجهود التي بذلتها قبيلة لمتونة القوية التي كانت تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد ويبدو أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة في الجنوب والسيطرة على تجارة السودان إلى الغرب واسترداد ما فقد الحلف من تجارة

ونفوذ. وانتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة وقد قُدّر لجدالة هذه القبيلة الفتية أن تتبنى الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين(١٣).

ارتاد يحيى بن إبراهيم (زعيم جدالة) أسواق المغرب الأقصى متاجراً أو زائراً فأحس بالبون الشاسع بين البيئتين، بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة وبيئة الصحراء التي يخيم عليها الجهل، فآثر أن يأخذ عالماً يعلم أفراد قبيلته فقصد القيروان وانتدب له (أبو عمران الفاسي) ... (الشيخَ عبد الله بن ياسين) حيث كان عبد الله بن ياسين من صنّاع التأريخ فقد أخذ يبث الدعوة الإسلامية على مذهب المالكية ولكنه لم يلبث أن وجد أن سياسة الوعظ لا تجدي فآوى إلى الرباط في جزيرة نائية في مصب السنغال وعاش عيشة الزهد والتقشف وتسارعت إليه الصفوة ثم زاد أتباعه من المرابطين، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية وتعليم الإسلام الصحيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بألسنتهم ولكن بأيديهم وأسلحتهم لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم(١٤).

نجح المرابطون في القرن الحادي عشر الميلادي في إزالة أكبر عقبة كانت تحول دون تقدم الإسلام جنوباً فاضمحلت على أيديهم مملكة غانة الوثنية ثم اعتنق ملوكها الإسلام وأخلصوا له وعملوا على نشره بوسائلهم وتحولت غالبية شعب غانة إلى الإسلام واستطاع دعاة المرابطين أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال والنيجر، فتم في عهد المرابطين تأسيس مدينة (تنبكت) وامتداد الإسلام إلى جنى وغدت هاتان المدينتان السودانيتان أعظم مركزين، وجاء نهاية مملكة غانة في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)(١٥) عندما احتلها الماندنجو(١٦).

في عام ١٢٤٠م/ ٦٣٨هج نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من كومبي صالح عاصمة غانة وبذلك انتهت إمبراطورية غانة وقام ماري جاطة بتأسيس مملكة (مالي) وبعد مملكة مالي قامت مملكة سنغي في السودان الغربي كما خلف الموحدون المرابطين في المغرب والمرينيون ومن ثم الأشراف السعديون ونشأت علاقات بين المغرب والسودان الغربي عبر الصحراء الكبرى(١٧).

المبحث الثاني

الطرق التجارية وأهميتها

تعتبر العلاقات الاقتصادية بين المغرب والسودان الغربي أقوى الروابط في تأريخ الاتصال بين هذين الإقليمين، وتعتبر الطرق أهم وسيلة لهذا الاتصال فهناك عدة طرق تربط بين شمال أفريقية وغربها عموماً، والطرق:-

* من سجلماسة إلى والاتا – تنبكت – جنى – جاو.
* من تلمسان إلى توات – تنبكت.
* من تكرث وورقلة إلى جاو – يتصل هذا الطريق بالموانئ الجزائرية في الشمال.
*من واحة الجرير في جنوب تونس إلى ورقلة – سوق – غدامس.
* من طرابلس الغرب على الساحل الليبي إلى غدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى بورنووجاو.
* من مصر إلى واحدة سيوه – زاويلة – تادمكة – جاو – تنبكت(١٨).

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه الطرق ونهاياتها كما ركز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها التي كانت وسيلة الاتصال الاقتصادي والثقافي والسياسي في آن واحد معاً(١٩).

إن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة من وادي درعة إلى وادي تارجا وفي جبل أدراد مجابة ماؤها على ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى(٢٠).

إن السفر عبر الصحراء الكبرى لم يكن أمراً شاقاً وصعباً بسبب وفرة الماء ولم تكن الصحراء بلا ماء وعشب ولكنه يتوفر في أحيان كثيرة بل توفرت المياه السطحية ولم تتعدَ أعماقها في أحيان كثيرة عدة أمتار كما أن بها عيوناً ومياه جارية والبعد بين البئر والآخر لا يتعدى اليومين أو الثلاثة وثمانية أيام على الأكثر(٢١).

يذكر ابن خلدون بوجود آبار ارتوازية بالصحراء بقوله: في البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربيه في استباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوي جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق ثم تصعد ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها على الماء فينبعث صاعداً فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض وادياً(٢٢).

هنالك ثلاث طرق للتجارة الخارجية الهامة الأول هو الطريق المحاذي للنهر من الجنوب الغربي والذي تحمل منه التجارة المجلوبة من عدة مناطق وطريقان آخران من الشمال أحدهما من المغرب والآخر من قدامس(٢٣).

إن أهم هذه الطرق هو الطريق الممتد من تغازة إلى تنبكت وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الذهب ولم يزل أهم الطرق من ناحية الثقافة حتى القرن التاسع عشر وكان خراب سجلماسة في السنين الأخيرة قد حرم هذا الطريق من ثغوره التاريخية الشمالية فحلّت مكانها إلى حد ما مدينة أبوام المجاورة ولكن أغلب التجار تركوا تافيللت واتجه بعضهم إلى عين صلاح عاصمة توات وقد سافر التجار من وادي وابوام عبر عكا التي ورثت أعمال سجلماسة على طول الطريق القديم عبر تغازة وتاوديني إلى تنبكت على... فبدلاً من الاتجاه غرباً إلى تاوديني ثم والاتا... تتبع الطريق الخط المباشر عبر وادان(٢٤).

إن بداية القرن الخامس عشر أصبح الطريق القديم الذي يمتد من ناحية السوس إلى والاتن "والاتا" قد أهمل نتيجة لاعتداءات الأعراب من البادية السوسية على سابلتها فتركوا تلك الطريق ونهجوا الطريق إلى السودان من أعلى تمنيطت (توات) وبسقوط غانا على يد المرابطين انتهت أهميتها كمركز تجاري. وفي عام ١٢٢٤ تحول التجار المسلمون بعيداً جهة الشمال الغربي إلى والاتا، وفي عام ١٢٤٠م تحطمت غانا نهائياً وتغير الميزان الاقتصادي وانحرف جهة الشرق إلى منحنى النيجر الأوسط وأصبحت جنى وتنبكت وجاو مراكز تجارة الاستيراد والتصدير وخلف ملوك مالي ومن ثم ملوك سنغي ملوكَ غانة في الاستفادة من ذلك التحول(٢٥).

اكتسبت طرق الشرق أهميتها بقيام سلطنتي كانم وبرنو كما أن انهيار سلطنة سنغي وقيام ممالك الهوسا نشط الطريق الشرقي وجعله أكثر أهمية في الطرق الغربية وأصبحت كانوهي المركز الرئيسي الذي تنتهي عنده الطرق التجارية بدلاً من تنبكت، وبعد الاحتلال الأوربي لسواحل أفريقيا الغربية انحرف جانب كبير من التجارة ناحية الجنوب نحو الساحل وأصبح القرنان السابع عشر والثامن عشر يمثلان فترة تدهور اقتصادي بالنسبة للمناطق المسيطرة في وسط النيجر وأدى سقوط مملكة سنغي على يد السعديين إلى انهيار تجارة الصحراء بين المغرب والسودان الغربي وساعد في تنشيط تجارة الساحل مع الأوربيين كبديل للطرق الصحراوية مع المغرب(٢٦).

المبحث الثالث

المراكز التجارية

أولاً: المراكز المغربية:

١ – سجلماسة:

تعتبر سجلماسة مركزاً تجارياً هاماً ومنها تسير القوافل إلى تغازة وقد ذكر عنها ابن حوقل بأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً وبها أرباح متوافرة ورفاق متقاطرة وأهلها قوم سراء مياسير وأبنيتها كأبنية الكوفة(٢٧).

حافظت سجلماسة على وضعها العام لعدة قرون فبينما لها أهميتها التجارية فهي صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان كثيرة الغرباء وبها معادن الذهب والفضة وهي تشبه مدينة البصرة في كثرة التمر. إن المسافة بينها وبين تغازة خمسة وعشرين يومياً(٢٨).

٢ – تغازة:

يصفها لنا ابن بطوطة بأنها قرية لا خير فيها ومن عجائبها إن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخمة متركبة يجمل الجمل منها لوحين. إن قرية تغازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر(٢٩)، وكانت تغازة تابعة لقبيلة موفة وبسبب اهتمام السودانيين عادة بمدن الملح فقد قام أهالي سنغي باحتلالها في عهد الحاج أسكيا محمد سلطان سنغي وفي عهد السعديين قام المغاربة باحتلال تغازة وضموها لمملكتهم وفرضوا عليها زكاة المعدن(٣٠).

إن تجار السودان كانوا يصلون إلى تغازة ليحملوا منها الملح إلى السودان كما كان التجار المغاربة يأخذون منها الملح كذلك إلى السودان، وفي بعض الأحيان يقوم السودانيون بحمل الملح على ظهر إبلهم مقابل أجرة قد تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال قيمة الكمية المحمولة من الملح يدفعها لهم التجار المغاربة إذ يتناول التاجر حمله جمل من كل أربعة جمال على حين يتناول صاحب الجمال حمولة الجمال الثلاثة مما يؤكد الرحلة وتكلفة الترحيل الباهظة(٣١).

٣ – تكدا:

اشتهرت تكدا بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها ويحمل إلى بلاد السودان ويسبك في بعض الأحيان وتصك منه العملة. ومن تكدا تسير القوافل إلى برنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدر منها السلع إلى المغرب والنحاس الذي يحمله التجار إلى سلطنة مالي لاستبداله بثلث وزن النحاس ذهباً خالصاً(٣٢).

٤ – توات:

وهي من المراكز التجارية الهامة وقد ذكرها ابن خلدون وأشاد بعمرانها وقال فيه: فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من القرب إلى الشرق وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت وهو بلد متبحر في العمران وهو ركاب التجار المترددين من الغرب إلى بلد مالي من السودان بهذا العهد تحتوي توات على أربعة آلاف عائلة وبها تربة خصبة لزراعة الحبوب والشعير ويزرعون القصب السكري بكميات وافيرة وعندهم كمية من التمر ولا يستعملون أي عملة بجانب الذهب(٣٣)، وتعتبر توات مركز إنعاش لتجار القوافل إذ تقع في واحة غنية وتزود التجار بالغذاء والماء العذب وتوفر الكلأ لجمالهم كما يتم تغيير الجمال والأدلاء وغالباً ما يقوم تجار السودان بعرض بضاعتهم بها(٣٤).

٥- غدامس:

كانت غدامس مركزاً تجارياً هاماً وتتفرع منها عدة طرق تجارية وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر وتتجمع فيها وبعض هذه القوافل يسافر غرباً عن طريق توات ومنها إلى تنبكت وبعضها يسافر مباشرة إلى غات وكانو والفرع الثالث يتجه اتجاهاً جنوبياً غربياً إلى مرزوق ومنها إلى بورنو(٣٥).

وزارها الرحالة لين ودهش بطريقة تجارها في أجواء محاسباتهم التي تتمشى مع الأساليب الحديثة فقد كانوا يحسبون تكلفة البضاعة للأقطار المتعددة وتكلفة الضرائب ويضعون في اعتبارهم المخاطر التي تتعرض لها بضاعتهم كما يضعون نسبة مئوية لما ستجنيه تجارتهم ولهم فواتير حسابية كما يقومون بعقد عقود شفاهية(٣٦).

وعلى الرغم من أن الرحالة لين قد زار غدامس في القرن التاسع عشر إلا أن التقاليد التجارية تستمر لعدة قرون ونستشف عن حديث لين: الوعي المبكر الذي كان يتمتع به تجار غدامس ولعل هذا ينطبق على كل التجار في المغرب فالتقاليد التجارية عرف متبادل يتعارف عليه الناس في هذه الأقاليم(٣٧).

٦- مرزوق:

اشتهرت مرزوق كمركز تجاري لبلاد البرنو وأن لها صلة ببلاد توات وغدامس وإن صلتها بالسودان الغربي أكثر من صلتها بإقليم برنو وقد ظلت مرزوق كما كانت منذ القدم وحتى القرن الثامن عشر المركز الرئيسي لإنعاش قوافل التجارة القادمة من غدامس وطرابلس إلى بلاد الهوسا وبرنو والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق(٣٨).

ثانياً: المراكز السودانية:

١- بني أوتياني:

كانت عاصمة مملكة مالي وتستمد المدينة أهميتها من موقعها بالقرب من مناجم الذهب وبزوال المملكة نجد أهميتها قد انتهت وعند زيارة الحسن الوزان "ليو الأفريقي" لها في القرن السادس عشر لم تكن سوى قرية تسمى مالي ويصفها ليو بقوله: كانت هناك قرية كبيرة تحتوي على ستة آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالي وكانت تسمى بها المملكة كلها وهي مقر إقامة الملك والمنطقة تنتج كثيراً من القمح واللحم والقطن ويوجد كثير من الصنّاع بها والتجار في جميع الأمكنة والملك يرحب بجميع الغرباء في كرم وكان السكان أثرياء(٣٩).

٢- تنبكت:

كانت تنبكت مركزاً تجارياً في عهد سلطنتي مالي وسنغي بيد أنها ازدهرت في عهد سلطنة سنغي واكتسبت أهميتها من موقعها الممتاز في منحنى النيجر فأصبحت في سنغي أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من الغرب كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان(٤٠).

٣- جـاو:

وهي عاصمة سلطنة سنغي وورد ذكرها على لسان البكري –الجغرافي الأندلسي– في حوالي ١٦٠٧م كما ذكرها صاحب كتاب الاستبصار بقوله: وأهلها مسلمون وأكثر ما يحمل إليها الملح والودع والنحاس المسبوك وحواليها معادن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً، إن السلع التجارية الرئيسية هي الملح والودع والنحاس المسبوك أما الملح فكان يرد إليها من تغازة والودع يأتيها من الهند بواسطة التجار المغاربة والنحاس من تكدا(٤١)، وتقع جاو على بعد أربعمائة ميل جنوب شرق تنبكت وبها تجار أثرياء وترد إليها الأقمشة من المغرب وأوربا كما يوجد بالمدينة سوق للرقيق. وفي عصر ازدهار الطرق الصحراوية بين المغرب والسودان الغربي كانت القوافل تصل إلى تنبكت ومنها تتجه إلى جاو غير أن ذلك تغير في آخر عهد مملكة سنغي بعد تدهور أحوالها وأصبحت الطرق الشرقية أكثر ازدهاراً بسبب نمو ممالك الهوسا فكانت

القوافل ترد إلى جاو ومنها إلى تنبكت، وقد تم تأسيس جاو قبل دخول الإسلام إليها في أواخر القرن الثاني الهجري وقد انتشر الإسلام في القرن السادس(٤٢).

٤- جنى:

كانت جنى مركزاً تجارياً هاماً وتأسست في القرن الثالث الهجري واشتهرت بتجارتي الملح والذهب وهي سوق عظيمة ويلتقي فيها تجار الملح وتجار الذهب وكانت تزخر بالأموال والرجال وهي ملتقى للطرق ويتم في مدينة جنى مبادلة الملح بالذهب وساعد موقعها الممتاز في منطقة محاطة بالمياه في تأمينها من غارات المعتدين، كما أنها تتميز بثرواتها الحيوانية والسمكية والزراعية ولا سيما القطن الذي يشتريه التجار المغاربة لتصديره إلى أوربا مقابل أواني نحاسية وأسلحة وغيرها من السلع وتستخدم القوارب في نقل الملح والسلع الأخرى من تنبكت إلى جنى وبالعكس وبذا غدت جنى صلة الوصل بين تجارة الذهب والملح(٤٣).

المبحث الرابع

السلع التجارية

الملح:

يعتبر الملح من أهم السلع بالنسبة للسودانيين ولا تقل أهميته عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة ولذلك لم يبالوا في مبادلته بالذهب وزناً بوزن ولم يمانع السودانيون منذ القدم في مبادلة الملح بنظيره من الذهب، وإن الملح معدوم في السودان وأنهم يبذلون نظير كل صبرة ملح مثلها من الذهب وتبدو أهمية الملح القصوى عند السودانيين من اتخاذه عملة شرائية وإن السودانيين يتصارفون بالملح كما يتصارفون بالذهب ويقطعون الملح قطعاً ويتبايعون بها(٤٤).

ويعدّن الملح في مدينة تغازة ويحمل على ظهور الجمال إلى السودان الغربي وعندما قام المغاربة بالسيطرة على تغازة في القرن السادس عشر قام السودانيون بفتح مناجم تاودين جنوب تغازة والتي أصبحت المورد الرئيسي لأقطار وسط النيجر وبعد وصول الملح إلى تنبكت يباع جزء منه بها ويحمل الجزء الباقي بالقوارب عن طريق النيجر إلى جنى ومنها يحمل على رؤوس الرجال إلى مناطق الذهب ليتم استبداله بهذا المعدن النفيس(٤٥).

النحاس:

كان النحاس يعدّن بخارج مدينة تكدا وبعد تعدينه يصب في شكل قضبان بعضها رفيع وبعضها سميك وتستخدم هذه القضبان كعملة شرائية فيشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ونذكر شيئاً عن معدن النحاس في رواية مستقاة من سلطان مالي منسى موسى والتي يذكر فيها إن النحاس يبادل بالذهب وزن مثقال منه بثلثي مثقال من الذهب(٤٦).

الودع:

يعتبر الودع سلعة تجارية هامة بجانب استعماله كعملة تداولية وكان التجار المغاربة يجلبونه إلى السودان وعند احتلال الأوربيين لسواحل أفريقية الغربية قاموا بجلب الودع من الهند على ظهر السفن مما شكل منافسة للتجار المغاربة في هذه السلعة الهامة. ويتخذ الودع كحلي شائعة الاستعمال في السودان الغربي بجانب استعماله كعملة(٤٧).

الأقمشة:

كانت الأقمشة من أهم السلع التي ترد إلى السودان الغربي من المغرب ومن مصر وأوربا مع القوافل التجارية وقد ذكرها ابن بطوطة في مشاهداته كما أن السودانيين كانوا يقومون بصناعة النسيج ولكن الكميات التي ينسجونها لم تكن تكفي حاجة السوق المحلية(٤٨).

الحلي الزجاجية والعطور:

وهي عبارة عن حبات تستعمل سبحاً أو عقوداً للزينة والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا أداماً ولا ديناراً ولا درهماً إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي ويقوم التجار بشراء المواد الغذائية من نساء القرى مقابل هذه السلع(٤٩).

الكتب:

تعتبر الكتب من أهم أصناف التجارة في السودان الغربي وأثمانها مرتفعة ويجني التجار منها فوائد عظيمة وكانت هذه الكتب تأتي من الشرق والمغرب ونشأت في السودان حرفة الورّاقين كما قام السودانيون بتأليف بعض الكتب الهامة وكانت تجارة الكتب تفوق أي عمل تجاري آخر وقد ساعد الثراء الذي حققته مملكتا مالي وسنغي في أيام ازدهارهما من مبادلة السلع الأوربية بالذهب الذي كانت تنتجه بلادهم بوفرة(٥٠).

الذهب:

ظل ذهب السودان الغربي سراً مكتوماً زهاء ألفي عام بيد أن العرب كانوا يعرفون مواضعه منذ وقت بعيد، وذكر لنا ابن حوقل الذي عاش في القرن الرابع الهجري ذهب السودان الغربي وكيف أن التجار المغاربة كان يبادلون الملح بالذهب ويصف ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي الذهب في تغازة بقوله: وقرية تغازة على حقارتها يتعامل معها بالقناطر المقنطرة من التبر. مما يؤكد لنا وفرة ذهب السودان(٥١).

الرقيق:

يعتبر الرقيق من السلع السودانية الهامة ويأتي في الدرجة الثانية بعد الذهب وكان يصدر إلى المغرب ومنها على بعض البلاد العربية وإلى أوربا وبعد اكتشاف الأمريكتين زاد إقبال الأوربيين على طلب الرقيق لاستخدامهم كأيدي عاملة في الزراعة والتعدين ونشأت بذلك تجارة رابحة وهكذا بدأت الحروب المحلية تكثر وتتزايد وبعد أن كان طابعها الطمع في قطيع من الماشية أصبح طابعها اقتياد قطيع من البشر(٥٢).

الفول السوداني:

استعمل الفول السوداني في المبادلة بشراء الملح، واشتهر السودان بإنتاج الفول وتخصصه فيه حتى سمي باسمه، وهو يزرع في السودان الكبير كله.

الكولا:

كان السودان يصدر الكولا للصحراء والمغرب وهي من المنتجات الرئيسة للسودان الغربي وكانت حبوب الكولا إحدى ثلاث سلع تجارية اعتادت اختراق أفريقيا إلى البحر المتوسط(٥٣).

النتائج:

١- يشمل السودان الغربي حوض نهر السنغال ونهر جامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر.

٢- لم تكن الصحراء تشكل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بين الإقليمين فكانت الأسس المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل السلع.

٣- كانت طرق القوافل الصحراوية بمثابة معابر انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية من المغرب إلى السودان الغربي.

٤- تعاقبت على المغرب عدة دول كان لها دوراً بارزاً في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس والسودان الغربي.

٥- كان التجار يترددون على المراكز التجارية في السودان الغربي وعند قيامهم بعرض متاجرهم أثناء إقامتهم بهذه المراكز كانوا يحتكون بالسودانيين ونتيجة لهذا الاحتكاك انتشر الإسلام بين السودانيين كما أخذوا عنهم أسلوب حياتهم وتأثروا بثقافتهم الإسلامية.

٦- كانت القوافل التجارية إلى السودان الغربي تحمل معها آلاف من البشر سنوياً مما جعل أثر القوافل ملموساً كما قام التجار بتعميق العلاقات الثقافية فأنشئوا المدارس لتعليم القرآن وأقاموا المساجد إلى جانب مزاولتهم للنشاط الاقتصادي فأنهم مارسوا نشاطاً تعليمياً.

٧- لقد بدأت صلات العرب المسلمين الأولى بالسودان الغربي من خلال الجهد العسكري الذي بذله القادة العرب الأوائل في هذه المنطقة، حيث قاد عقبة بن نافع الفهري حملة عسكرية باتجاه الحافات الشمالية للصحراء الغربية، كما قاد موسى بن نُصير حملة باتجاه وادي درعة في السودان الغربي.

٨- انتقلت المؤثرات العربية إلى السودان الغربي منذ البواكير الأولى للعصر الإسلامي وكان لوصول العرب المسلمين إلى تلك المنطقة أثر كبير في تطوير حياة الشعوب فيها.

٩- كان من أهم الطرق التجارية التي تمر عبرها القوافل الصحراوية للتجار العرب المسلمين إلى السودان الغربي هي:-

أ- الطريق الغربي وهو الطريق الذي يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي.

ب- الطريق الأوسط الذي يربط تاهرت والمغرب الأوسط بالسودان الغربي.

ج- الطريق الشرقي الذي يربط مناطق طرابلس بالسودان الغربي.

١٠- كانت [سجلماسة – تغازة – تلدا – توات – مرزوق] من أهم المراكز التجارية المغربية.

١١- كانت [بني أوتياني – تنبكت – جاو – جنى] من أهم المراكز الجارية السودانية.

١٢- أما أهم السلع التي كان ينقلها التجار العرب والمسلمون من وإلى السودان الغربي هي الذهب والملح والنحاس والأقمشة والعطور والكتب والرقيق والفول السوداني والكولا وغيرها.

١٣- قامت في السودان الغربي عدد من الممالك السودانية وكان لها دور كبير في امتداد الإسلام في مناطق السنغال والنيجر كما قامت علاقات قوية بين هذه الممالك وبين الدولة العربية الإسلامية، ومن أبرز هذه الممالك مملكة غانة ومملكة مالي ومملكة سنغاي.

الهوامش والمصادر:

١- الرفيق القيرواني: إبراهيم بن القاسم (ت النصف الأول من القرن الخامس الهجري)، تأريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، ١٩٦٨، ص٤٢.

٢- محمود: حسن أحمد، انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٢٧.

٣- الرفيق القيرواني: تأريخ أفريقية، ص ١٠٧.

٤- حسن أحمد محمود، انتشار الإسلام، ص ٢٢٩.

٥- الشيخلي: صباح إبراهيم، تأريخ الإسلام في أفريقيا، بغداد، ١٩٨٧، ص ٥٣ .

٦- البكري: عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هج)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٨٦، ص١٥٦.

٧- عوض الله: الشيخ الأمين وآخرون، تجارة القوافل ودورها الحضاري، ط١، مؤسسة الخليج للطباعة، الكويت، ١٩٨٤، ص٦٩.

٨- التونسي: محمد بن عمر، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، عمان، ١٩٨١م، ص١٣٢.

٩- الشيخ الأمين: تجارة القوافل، ص ٧٠ .

١٠- الملثمون: وهم الذين يستخدمون اللثام لتغطية وجوههم وموطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان. ينظر: ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هج)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، ١٩٥٩، ج٦، ص٣٧٣.

١١- حسن أحمد محمود: المرحلة الأفريقية في تأريخ المرابطين، الجلة التاريخية المصرية، المجلد/١٢، ١٩٦٤، ص ص١١١-١١٧.

١٢- غانة: كلمة أعجمية وهي مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب ومتصلة ببلاد السودان. ينظر: ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (ت ٦٢٦هج)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج٤، ص١٤٦.

١٣- المغربي: محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد للطباعة، بغداد، ١٩٨٢، ص ص٤٩-٥٣.

١٤- حسن أحمد محمود: المرحلة الأفريقية، ص ١١٩ .

١٥- الشيخ الأمين: تجارة القوافل، ص ٧٢ .

١٦- الماندجو: وهم المتكلمون بلغة الماندي، والمؤرخون العرب يطلقون عليهم لقب ميل.

١٧- محمد المغربي: بداية الحكم المغربي، ص ٥٤ .

١٨- ابن حوقل: أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت ٣٦٧هج)، صورة الأرض، مطبعة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، القسم الأول، ص٩١.

١٩- الشيخ الأمين: تجارة القوافل، ص ١٢٥.

٢٠- البكري:المغرب في ذكر ، ص.١٦٣

٢١- محمد المغربي: بداية الحكم المغربي، ص٥٧.

٢٢- ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص١١٩.

٢٣- حسن أحمد: المرحلة الأفريقية، ص١٢١.

٢٤- مسعد: مصطفى، الإسلام والحركات الإصلاحية في غرب أفريقية، مجلة أم درمان الإسلامية، العدد/١، ١٩٦٣، ص١٢٣.

٢٥- البكري: المغرب في ذكر، ص ١٧٣ .

٢٦- مصطفى مسعد: الإسلام والحركات الإصلاحية، ص ١٢٤ .

٢٧- ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٩٩ .

٢٨- ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠١ .

٢٩- إبن بطوطة(ت ٧٧٩ هـ):رحلة إبن بطوطة ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٦٩.

٣٠- مصطفى مسعد: الإسلام والحركات الإصلاحية، ص ١٢٢.

٣١- الشيخ الأمين: العلاقات بين المغرب والسودان الغربي، دار المجمع العلمي، جدة، ١٩٧٩، ص٦٤.

٣٢- البكري: المغرب في ذكر، ص ١٧٤ .

٣٣- إبن خلدون : العبر ، ج٧ ، ص١٧-١٨ .

٣٤- القشتالي: عبد العزيز، مناهل الصفاء في أخبار ملوك الشرفاء، المطبعة المهدية، الرباط،١٩٦٤، ص٨٧.

٣٥- ابن خلدون: العبر، ص ١٨ .

٣٦- القشتالي: مناهل الصفاء، ص ٥٢ .

٣٧- الشيخ الأمين: العلاقات، ص ٦٧ .

٣٨- الشيخ الأمين : العلاقات ، ص٨١ .

٣٩- الوزان: الحسن بن محمد، وصف أفريقية، الرياض، ١٩٦٥، ص ٩٤ .

٤٠- الحسن بن محمد الوزان: وصف أفريقية، ص ٩٧ .

٤١- ديفدسون: باسيل، أفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية، القاهرة، ١٩٧٢، ص٥٩.

٤٢- الوزان: وصف أفريقية، ص ٦٥ .

٤٣- المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هج)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٩، ص٤٧.

٤٤- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص، ص٥٩.

٤٥- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص، ص٦١.

٤٦- باسيل ديفدسون: أفريقيا القديمة، ص٦٠.

٤٧- باسيل ديفدسون: أفريقيا القديمة، ص٦٣.

٤٨- الحسن الوزان: وصف أفريقية، ص٩٧.

٤٩- الشيخ الأمين : تجارة القوافل ، ص ص٨٦-٨٧.

٥٠- باسيل ديفدسون: أفريقيا القديمة، ص٩٢.

٥١- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص، ص ٦٧ .

٥٢- الحسن الوزان: وصف أفريقية، ص ١٠١ .

٥٣- الشيخ الأمين : تجارة القوافل ، ص٨٩ .